اللسانيات العربية

Allisaniyat Al Arabiyah

مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز الملك
عبدالله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية
العدد ٢ ذو القعدة ١٤٣٦هـ سبتمبر ٢٠١٥م

- أثر المطابقة في توجيه بناء الجملة في العربية

- استثمار التراث العربي في ترجمة المصطلح اللساني

- الدلالة العرفانية وتراجع دور التركيب / الإعراب في إنتاج الكلام وتأويله

- البعد الثقافي في تعليم العربية لغة ثانية من وجهة نظر لسانية تداولية

- إشكاليّات الرُّؤية النّحتِيّة عند ابن فارس

- تصنيف الأفعال والأسماء في نظريّة أصناف الأشياء

- مفهوم الوظيفة المعجمية في نظرية معنى - نص و أثرها في تعليم الألسنة

- قراءة في كتاب « نحو معجم تاريخي للغة العربية »

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

الدلالة العرفانية الإدراكية وتراجع دور التركيب

الإعراب في إنتاج الكلام وتأويله [1]

* دكتورة منانة حمزة الصفاقسي

مقدمة

العرفان لغة مصدر من عرف الشيء وقد استعمل قديما بمعنى العلم. والعرفانية (الإدراكية) cognitivism عند أهل النظر نهج في التفكير عُرف منذ منتصف السبعينيات من القرن العشرين. ولعل بوادره كانت في علم النفس والفلسفة، ومنها سرت مبادئه إلى علوم أخرى منها اللسانيات. اعتبره بعض المفكرين "علما ذهنيا جديدا"[2]؛ وقُدّم على أنه اشتغال بالظواهر المدروسة لا يعترف بصرامة الفصل بين العلوم وينشُد العتق من الالتزام بالحدود الوضعية[3] للدراسة العلمية. لذلك يرى اللسانيون العرفانيون أن في معالجة الظواهر اللغوية باعتماد مفاهيم من علم النفس والفلسفة والإعلامية وعلم الإناسة فائدة بينة.

حاولنا في أعمال سابقة[4] أن ندرس علم الإعراب من وجهتي نظر تقليدية ثم لسانية حديثة. وبدا لنا أن أهم الإشكاليات في هذا الموضوع تتركز في العلاقة بين الإعراب/ التركيب والمستويات الأخرى المتصلة بها في الظاهرة اللغوية والعلوم الفرعية الواصفة للمجالين، وخاصة منها مستوى المعنى وعلم الدلالة باعتباره علما يشتغل بالمعنى. استهوانا البحث في التركيب والدلالة في الفكر العرفاني لأننا وجدناه يمثل وجهة نظر حديثة قد تأتي بالجديد في تناول مسألة قديمة. نقصد بذلك علاقة الإعراب/ التركيب[5] بالمعنى/ الدلالة[6] في التراث النحوي العربي. ولم يتيسر لها حلّ واضح المعالم في المدارس اللسانية البنيوية التي حافظت على مبدإ استقلالية

(مساعدة متعاقدة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان/ تونس)

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

اللسانيات عن سائر العلوم. فلعلّ توسيع أدوات عمل العرفانيين في دراسة الظواهر اللغوية يأتي بنتائج تثري هذا المبحث بمبادئ تجلي بعض الغموض عن نقاط الالتقاء والحدود الفاصلة بين مجالي التركيب والدلالة.

نحاول أن نحدد معالم الجواب عن هذه الإشكالية على ثلاث مراحل: نسعى في الأولى إلى النظر في بعض مظاهر تطوّر الاشتغال على الدلالة عند تشومسكي بالخصوص باعتباره ممن عاصر فكرُه في جانب كبير منه ظهور العرفانية (الإدراكية)، ولعلّه اشترك معها في بعض التصورات. ونحاول في الثانية أن نرصد جوانب من المسائل الدلالية فالتركيبية عند العرفانيين؛ و يملي علينا تخصصنا في مسائل النحو العربي أن نقف في المرحلة الثالثة على أمثلة من النحوي العربي يمكن اعتبارها من قبيل التناول الذي يقدّم الدلالة على التركيب/ الإعراب في معالجة بعض المسائل، ويفسر الإعراب بالدلالة دون أن ندّعي أن النحاة العرب كانوا عرفانيين قبل العرفانيين المعاصرين.

تطور علم الدلالة عند تشومسكي وحدوده.

الإسقاط المعجمي عند تشومسكي وتراجع مركزيّة التركيب في النظرية اللسانية.

يكاد المشتغلون بالنظريّة التوليديّة يجمعون على اعتبار المكوّن التركيبي صاحب المركزيّة الحقيقيّة في الفكر اللّساني التوليدي، خاصّة في المناويل اللّسانيّة الثّلاثة الأولى[٧]. فقد اعتبر تشومسكي في هذه المرحلة من نظريّته أنّ المتحكّم في تفسير كيفيّة اشتغال الظاهرة اللّغويّة هو التركيب. وقد أسند إليه دور التوليد الحقيقي للأبنية اللّغويّة في مختلف المستويات. يقول ستيفان روبار متحدّثا عن تشومسكي: "ولكنّه يجعل للمكوّن التركيبي أيضا دورا أوّليّا في الإنتاج. وبالفعل، الأبنية التركيبيّة هي التي تولّد الملفوظات؛ أي أنّ اختيار الكلمات يجري داخل التركيب الذّي يعتبر المكوّن التوليدي الوحيد"[٨]. لذلك كان التركيب، بوصفه مكونا قابلا للوصف والتحليل من وجهة نظر محددة للعلم، الخيط الناظم لعمليّتي الإنتاج والتقبّل اللّغويّين في هذه المرحلة. هذه الأولويّة للمكوّن التركيبي لم يدعمها الواقع اللّغوي بصفة مطلقة، يظهر ذلك خاصّة في توليد المنوال الأوّل للجمل المقبولة نحويّا وللجمل غير المقبولة كذلك. وقد دفع ذلك بتشومسكي إلى إدخال المستوى الدلالي في الجهاز النظري

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

التوليدي للّغة على مرحلتين: أدخل في منواله الثاني المكوّن الدلالي في البنية العميقة؛ ثمّ ألحق المكون الدلالي بالبنية السطحية في المنوال الثالث. ولئن حسّن ذلك من دور المكوّن الدّلالي، إلاّ أنه بقي ضعيفا في هذه المرحلة. ويعود ذلك في تقديرنا إلى تمسّك تشومسكي بشكلنة (شكلية) الدراسة اللّسانية، وحصرها في إطار ما يمكن ضبطه من الظواهر اللّغويّة ودراسته دراسة علميّة رياضيّة مقنّنة. وليس المكوّن الدلالي من هذا الصنف باعتبار أنّ الدلالة وما تتحقق به من المعاني يغلب جانب التأويل فيها؛ فهي بالتالي ليست مما يمكن ضبطه بالآليات المعروفة في الدراسة اللسانيّة.

تغيرت منزلة التركيب في النظريّة التوليدية بصفة ملموسة في المنوال الأدنوي الّذي تشكّلت ملامحه الأولى مع نظريّة التحكّم والربط كما ظهرت في محاضرات تشومسكي Lectures on government and binding ١٩٨١؛ فقد حظي الفعل في هذه النظرية باعتباره مكوّنا معجميا بدور مهمّ فأصبح صاحب السلطة الحقيقية في توزيع الأدوار الدلاليّة في الأبنية التركيبيّة في ما يعرف بنظريّة "س المسقطة". وفي علاقة بهذه الأهمية التي حظي بها الرأس المعجمي الفعلي تطوّرت مكانة المستوى المعجمي في النظريّة اللّسانيّة التوليدية. وأصبح مفهوم الإسقاط المعجمي هو الآليّة المفسّرة للانتقال ممّا هو مجرّد من السمات الدلالية المختزنة في الفعل إلى ما هو متحقّق في الأبنية المنجزة. وكان ذلك بمثابة بداية حقيقيّة لتراجع دور التركيب بالمعنى المتعارف عليه في اللسانيات الحديثة[٩]. فقد أصبحت المقاييس paramètres من مضامين المستوى المعجمي. واختصّ الفعل بدور التوليد للأبنية اللّغويّة في مختلف مستوياتها بـالمفهوم الرياضي للإسقاط المعجمي. وأصبح الفعل العنصر المعجمي الرئيسي، باعتباره الوحدة اللّغويّة رأس البنية التركيبيّة، والمتحكم الحقيقيّ في تنظيم البنية العميقة وما يتّصل بها من أدوار دلاليّة. وهذا يعني أنّ خصائص الفعل المعجميّة الدلاليّة هي التي تتحكّم في ضبط المحلات التي تكوّن البنية التركيبيّة. فالفعل اللّازم لا يتطلّب إلاّ محلاّ تركيبيّا واحدا هو محلّ المكوّن الاسمي الّذي يقوم بدور الفاعل النحوي في البنية التركيبيّة، في حين أنّ الفعل المتعدّي يطلب ضرورة محلات تركيبيّة أخرى إضافة إلى الفاعل وهي المتمّمات التي ينفتح عليها الحدث الفعلي. وليست الوحدات المعجمية التي يطلبها اللازم من الأفعال أو المتعدي مقبولة إلا بمقتضى ما تمليه السمات المعجمية

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

المسجلة في الفعل. وفي هذا السياق يقول محمد صلاح الدين الشريف: "يحتلّ الإسقاط المعجمي دورا أساسيّا في انتظام الأبنية في مختلف المستويات التمثيليّة، إذ ينطلق من الأساس المعجمي وينظّم البنية العميقة وما فيها من أدوار دلاليّة ومواضع حدّيّة" (١٠).

تراجُعُ دور التركيب لصالح المعجم في تفسير كيفيّة اشتغال الأبنية اللّغويّة لم يفسّر في الحقيقة كلّ الأشكال التركيبيّة في كل الألسنة. فصاحب نظريّة الإسقاط المعجمي قد اختزل البنية التركيبيّة المجرّدة في الشكل النظري التالي: [فاعل+ فعل + مفعول]. وهي بنية يبرز الفعل فيها المتحكم الأوحد في توزيع الأدوار الدلاليّة في البنية التركيبية، في حين أنّه لا يعدو أن يكون عنصر تنفيذ لا يتجاوزها لتفسير خاصيّة الإبداع في اللّغة. وهذه الخاصية إنما هي مما يتميز به المتكلّم السامع وحده بوصفه المنشئ الحقيقي لمختلف الأبنية اللّغويّة. لذلك قد يكون التصور الذي اعتمده تشومسكي لتفسير كيفية اشتغال الظواهر اللغوية وأولى فيه منزلة قوية للمكون المعجمي الفعلي ضعيف الكفاءة في تفسير اشتغال كلّ الأبنية اللّغويّة. فالبنية التركيبيّة للجملة الاسمية المحضة التي شكلها [مبتدأ+ خبر]، تلك الّتي لا دور للفظ فعل في توزيع محلاتها التركيبيّة ولا تعجيمها كما في "هذا زيد" أو "voici Paul"، قد لا تجد تفسيرا لبنيتها في نظرية الإسقاط المعجمي.

على هذا الأساس يمكننا اعتبار ما قدّمه تشومسكي في نظريّة الإسقاط المعجمي – برغم تقوية جانب الدلالة المعجمية المجردة فيه على حساب التركيب– أقرب إلى النحو الخاص منه إلى الخصائص العامة للألسنة البشرية. ذلك أنّ ما قدّمه من تصور لتفسير كيفيّة اشتغال النظام اللّغوي، لاتتجاوز كفاءته التفسيرية الخصائص التركيبية المتحكمة في اللّسان الإنجليزي. وقد عدّ ذلك من مواطن الضعف في نظرية الإسقاط المعجمي. ولعل ذلك كان من الأسباب التي دعت اللسانيين إلى البحث عن حلول تقوى على تفسير ما لم تفسره نظرية الإسقاط. ويمكن أن نعتبر أن ظهور اتّجاهات جديدة منها الدلالة التوليديّة والاتّجاه العرفاني يندرج في هذا الإطار. فقد سعى هذا الأخير إلى ربط علم اللّغة بالعلوم العرفانيّة (الإدراكية) الأخرى وربط الصلة بين اللّسانيات في وجهها النظامي ووجهها العرفاني بمختلف تجلّياته.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

إعادة النظر في مبدإ «اكتفاء اللّغة بذاتها» وفتح نظام اللغة على الفضاء العرفاني.

نستعمل «اكتفاء اللغة بذاتها» فيما يصطلح عليه بعض الباحثين بـ«المحايثة» ترجمة للمصطلح الأعجمي immanence. وقد دعت الحاجة إلى الوقوف على هذا المفهوم لأنه من النقاط التي ناهضت فيها العرفانية (الإدراكية) ما قبلها من تفكير لساني مناهضة تامة. أرسى دي سوسير أركان هذا المفهوم اللساني في دروسه. وكان له تأثير جليّ في لسانيات القرن العشرين لأسباب لا يتسع مجال البحث لعرضها. ولعله يحسن أن نشير إلى أن "اكتفاء اللغة بذاتها" مبدأ منهجي يُطلب بمقتضاه أن تكون الدراسة اللغوية مقصورة على معالجة الظواهر اللغوية مستقلّة عن ضروب التفسير المستمدّة من خارج اللغة ومن علوم أخرى غير علم اللغة. والقول بهذا المبدإ يرجع إلى أسباب تاريخية؛ أهمّها ما خالط المسائل اللغوية من مفاهيم فلسفية ذهنية في جلّ الأنحاء التقليدية؛ وما شاب الدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر من وجوه تفسير ربطت بين اللغة وعلوم الأحياء، فقصرت موضوع اللغة على الظاهر المحسوس. فمفهوم الاستقلال autonomie إنما يعني – في ظننا– التخلّص ممّا هو خارج اللغة extra-linguistique، إمّا باعتباره ذهنيا فلسفيا ماورائيا غير خاضع لمقاييس الدقة العلمية السائدة، وإمّا باعتباره مخالفا لما تشترطه حقيقة العلم من طلب للثوابت إذا كان من الموجودات الراجعة إلى الواقع المحسوس. وقد نبّه المفكرون المحققون إلى أنّ حكم الحواس وتقديرها للوقائع فيه نسبة كبيرة من الخطإ. فالتركيز في هذا المبدإ المنهجي كان مداره ضبط حدود ما يعالج في الدراسة اللغوية، وذلك بنبذ مجالين اثنين لا ينتمي الموجود فيهما إلى مجال اللسانيات: المجرّد الذهني من ناحية بسبب ماورائيته، والواقعي المحسوس بسبب ما يشوبه من متغيرات من ناحية أخرى. ويبدو لنا أن تهميش لسانيات القرن العشرين – بما فيها اللسانيات التوليدية في تصور تشومسكي – للمسائل الدلالية وقضايا المعنى، يرجع إلى هيمنة هذا المبدإ. فما نعبّر عنه بلفظ «المعنى» في الاستعمال الواسع للكلمة، فيه جانب ذهني مجرّد مقولي نصطلح عليه في هذا البحث بـــ«الدلالة» signification وفيه جانب متحقّق في مستويات مختلفة من التشكل، نحاول أن نمحّض له مصطلح " المعنى" sens.

يسعى العالِم عادة – مهما كان موضوع علمه– إلى تجريد المعطيات ممّا يمكن أن

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يؤثر في نتائج دراستها وهو ليس من حقيقتها، عسياه يصل إلى درجة قصوى من الدقّة والحرفيّة العلميّة. ولعلّ ذلك ممكن التحقيق في بعض العلوم التي تعتبر في بعض التصنيفات من العلوم الصحيحة، كالرياضيات والفيزياء وغيرهما؛ وقد حاول علماء اللّغة ذلك متأثّرين بالعلوم الرياضيّة رغبة منهم في ضمان الدقّة، فاستبدلوا «الملاحظة الاستقرائيّة بالافتراض الاستدلالي»[١١]. وسعت مختلف المدارس اللّسانيّة، من بنيويّة وتوزيعيّة ووظيفيّة وتوليديّة، جاهدة إلى تخليص اللّغة من شوائب العالم الخارجي واختزال معطياتها في أشكال مجرّدة مفصولة عن معطيات الواقع. لذلك نظرت تلك الاتجاهات والمدارس إلى الألسنة البشرية على أنّها أنظمة من القوانين المعزولة عن واقع اللّغة ذاته؛ ولم ينظر إليها بوصفها معطى متحقّقا خاضعا لظروف التحقق وملابساته؛ وبرغم ذلك تسرّب الواقع المنجز إلى النظريّة اللّغويّة. يظهر ذلك مثلا مع تشومسكي في استعماله لما سمّاه بحدس المتكلّم/ السامع المثالي. من هنا يبدو أنّ اللّغة ظاهرة غير مستقلّة تماما بذاتها، خلافا لما سعت إلى تأكيده عديد المذاهب اللّسانيّة التزاما منها بالمبدإ السوسيري: «وإنّما يتمثّل موضوع اللّسانيات الوحيد والحقيقيّ في اللّسان مقصودا لذاته ومن أجل ذاته»[١٢].

يبدو لنا أنّ الاتّجاهات اللّسانيّة الّتي سعت لفصل الدراسة اللغوية عن الواقع وحاولت حصرها في أبنية شكليّة مجرّدة قوامها نظام من القوانين الصوتيّة والصرفية والتركيبيّة، بدرجة أساسية، والدلالية بدرجة ثانوية، اتّسمت بضعف كفاءتها في تفسير الوقائع اللّغويّة. فهاجس تخليص اللّغة من شوائب الاستعمال من أجل ضمان الدقّة، وإمكان القبض على الظواهر اللّغويّة الثابتة وتنزيلها في قوالب شكليّة مضبوطة حتّى تتّسم الدراسة اللغويّة بالصّرامة العلميّة، قد يطمس حقيقة الكيانات اللّغوية الضاربة بطبيعتها في ملابسات إنتاج الكلام. ويبدو لنا أن تدارك تشومسكي هذا الأمر بتقوية منوالاته بإلحاق المكون الدلالي بالبنية العميقة ثم بالبنية السطحية لم يحلّ المشكل تماما برغم ما حقّقه من نتائج على مستوى التمييز بين المقبول واللاحن من الجمل. فوصف اللّغة من الدّاخل باعتبارها ظاهرة منغلقة على نفسها لم يسعف اللّسانيّين، الذين اعتقدوا أن هذا التمشي سليم، بالنتّائج المجدية لتفسير كيفيّة اشتغال كل وجوه نظام اللّغة. ذلك أن اللغة أوسع من أن تختزل في أشكال ومعادلات. ولعل في اقتناع غيرهم ممن خالفهم بضرورة اعتماد الجانب المرجعي

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

واعتباره مما ينبغي أن تتناوله الدراسة اللغوية، ما يؤكد أنّ اللغة ليست فقط القوانين النحوية المتحكمة في مستويات التحليل المعروفة؛ بل إن القوانين لا تدرَك حقيقتها إلا باعتماد معارف وثيقة الصلة بالمتكلم السامع وبملابسات الخطاب. ذلك أنه قد يتعذّر أن يفسّر بالتركيب وحده اختلاف متكلمين اثنين في التعبير عن المعطى نفسه بملفوظين مختلفين. ويمكن أن نمثّل لذلك بأستاذ يسأل طلبته وصف وقع النجاح في نفوسهم. والأكيد أنه سيحصل على صور متعددة مختلفة من التراكيب. قد يختار البعض تراكيب اسميّة وقد يختار البعض الآخر تراكيب فعليّة. وقد يكتفي البعض بمجرّد وصف الإحساس بمفردة، كما قد يسعى آخرون لتعديد الأوصاف. وفي كلّ هذا قد يستعمل الطالب أشياء الكون المجسّدة في العالم الخارجي في وصفه لفرحته: مثلا المزمار أو الطبل أو البيانو، كما يمكن أن يستعمل صورا ذات إحالات مجازية نحو قوله:

١. **أكاد من الفرح أطير .**

ومعلوم أنّه لاعلاقة للطالب بحقيقة الطيران؛ ولكنّه أخرج الفعل «طار» من دلالته المعجميّة الحقيقيّة إلى المجاز وهذا لا وجود له في عالم الأشياء المعطى، وإنّما وجوده في عالم الأشياء المكوّن؛ بل كيف يمكن للتركيب مكتفيا بذاته ومعزولا عن معطيات أخرى أن يفسر قول متلفظ واحد:

٢. **أحبّ الموسيقى / الموسيقى تحلو لي**

حيث عبر عن التجربة نفسها تقريبا؛ لكن التركيب جعل المتكلم فاعلا مرّة ومفعولا به مرّة ثانية. فالتجربة المعيشة يكوّنها الإنسان بألفاظ تعكس صورا مختلفة. ويرتبط ذلك بما يوجد في الأذهان من قدرة على التخييل، ونقدّر أنّه يرجع إلى ما يميز ملكة اللغة من طاقة إبداعية. فما كان مجردا في الذهن، هو من باب الدلالة اللغوية، وما تحقّق باللفظ قوله إنما ينتمي إلى المعاني المتفاعلة مع الأغراض المقصودة في الواقع المعيش.

إن عالم الأشياء المكوّن لا تنحصر أجزاؤه المكونة في المنجز المادي المعبر عنه باللسان، وإنما يتجاوز ذلك ليشمل قدرات عرفانيّة كامنة تتحرّك ترددیا بين الذهن والفكر. الذهن بوصفة استعدادا فطريّا هو فضاء المجردات، والفكر بما هو امتداد للذهن باعتباره مجالا للمنتج بالتجربة متولدا عن الذهن: «أمّا نحن فيكفينا هذا

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

التّلازم بين اللّغة والفكر دليلا على تعذّر استقلال الظاهرة اللّغويّة عن كيان هو منها. هذا الكيان هو الذهن أو الفكر. ولا فرق بينهما في تقديرنا سوى أنّ الذهن أكثر تجريدا من الفكر. فكأنّ الذهن هو القوّة الفطريّة، في حين أنّ الفكر هو ما يتحقّق منها بالخبرة والتجربة»[١٣]. ونعتبر أنّ هذا المتحقّق بالتجربة إنما هو مختلف المعارف الإنسانيّة الحاصلة في العلوم الصحيحة والعلوم الإنسانيّة المكونة للحضارة البشرية، بما فيها من ثقافات مجتمعية متعددة. وبذلك نميل إلى الاعتقاد أن اللغة لا تنفك عن المتصورات الذهنية باعتبارها منطلق عملية التفكير؛ بعضها يتحقق بالألفاظ ويبقى البعض الآخر موجودا بالقوة بحسب ما تدعو إليه أغراض المتكلم.

يعني مبدأ اكتفاء اللغة بذاتها ضمنيا إخراج الدراسات اللغوية من التبعية لمجالات معرفية أخرى كالعلوم الطبيعية والفلسفة وغيرهما. وهي محاولات ظهرت عند بعض لسانيي القرن التاسع عشر، وتأكدت بعد ذلك: «دعا هؤلاء إلى الفصل بين مقولات الفكر والمشاغل اللّغويّة رافضين بذلك ما تقرّر عند الباحثين طيلة ألفيّتين تقريبا من أنّ اللّغة مرآة عاكسة للفكر»[١٤]. وكأنّ اللّغة مجال مغلق على ذاته لا يتفاعل مع المعارف الأخرى بمختلف مجالاتها. لكن اللّغة في جوهرها نظام به توصف المعارف الأخرى وتتداول بين المتكلمين؛ بل هي آلة الإنسان ووسيلته العرفانيّة (الإدراكية) الوحيدة الّتي تمكّنه من تمثّل مكوّنات الكون المحيط به وتقطيعها. فبها يمكن له إدراكها وتوظيفها للتعبير عمّا يمكن تمثّله من العالم الخارجي. ولئن ذهب تشومسكي إلى اعتبار اللغة ملكة عرفانية فإنه ربط ذلك بشرط استقلالها عن القدرات العرفانية (الإدراكية) الأخرى التي يتمتع بها الإنسان معتبرا أن تلك الملكة المستقلة هي الموضوع الأوحد للدراسة اللسانية[١٥]. ويبدو لنا أن في ذلك بعض الحرص على التمسك بالإرث السوسيري، وفيه أيضا جانب من التطور في النظر إلى الدراسة اللغوية.

نعتقد أنّ اعتبار تشومسكي القدرة اللّسانيّة ملكة عرفانيّة رأي يحمل بذرة جديدة. فبقدر ما واصل السير على نسق اللّسانين قبله في فصلهم مقولات اللّغة عن مقولات العلوم الأخرى، أسّس لبداية توجّه جديد يظهر في اعتباره الملكة اللّغويّة عضوا ذهنيّا un organe mental. لقد نزّل تشومسكي اللّغة بين العضويّة الجسمانيّة الملموسة والذّهني غير الملموس، وهي خاصية يتميز بها الإنسان عن سائر

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

المخلوقات الموجودة في الكون من حيث إدراك الموجودات والعبارة عنها. وفي ذلك اعتراف بأنّ اللّغة خاصيّة بشريّة بامتياز. ومن هذا المأتى يمكن لنا أن نذهب إلى أن اللغة لا تنفصل عن الفكر بل يذهب صاحب النظريّة التوليديّة إلى أنّ "اللّغة لا وجود لها خارج تمثّلاتها الذهنيّة"[١٦]. ونحن نعتبر هذه التمثّلات الذهنيّة لا تعدو أن تكون وجها من وجوه الفكر، وإن لم يصرّح تشومسكي بذلك. ويقوى هذا الطرح عندنا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التوجّهات اللّسانيّة التي تشكّلت ملامحها انطلاقا من انتقاد جوانب من التفكير التوليديّ؛ ونقصد تحديدا الأنحاء العرفانية (الإدراكية). فتلك فيما نظنّ تعدّ تطويرا لما لم يتبلور عند تشومسكي.

على هذا الأساس، لا يمكن الفصل بين المتصوّر الذّهني المجرّد وصوره المتحققة. فالمجرّد هو المكوّن التوليدي للمنجز. واللّغة مجال تتفاعل فيه الأبنية المجرّدة والأبنية المنجزة بمختلف أشكال تحقّقها في العالم الخارجي؛ وهذا ممّا يقوّي القدرة التفسيريّة للدراسات اللّغويّة. واللّغة تتنزّل في محيطها الطبيعي، ولا تنفصل عنه إلا في مستوى اختزال ذلك الواقع في وقائع شكليّة قصد دراستها دراسة تحليليّة تفسيريّة؛ أي من جهة تناول إبستمولوجيّة. ويتلازم بذلك الوجه الذهني المجرّد و الوجه النظامي للّغة، بوصف الأوّل مشتركا عامّا بين البشر، وباعتبار الثاني من خصائص كل لسان. ويمكن أن نسوق بعض الأمثلة التوضيحية لمزيد البيان: فالمقولات الدلالية من مجال المجرّدات الذهنية التي يفترض أن تشترك المجموعات البشرية في القول بها، كمقولة الطير التي تتحقق باللفظ في تسمية كل طائر في كل لسان. أما اختلاف المجموعات في إرجاع النعامة أو الخفاش إلى هذه المقولة، فهو من باب التنوع الثقافي ... والحركة mouvement مقولة نزعم أنها بشرية مجردة تتحقق بما يتصوره الفكر من أفعال تعبّر عنها اللغة بالتقدم والتأخر والصعود والنزول وما جرى مجرى ذلك. أما اعتبار استعمال الحافلة للتنقل حركة من قبيل الركوب عند العرب "ركب الحافلة"، أو الاستقلال "استقلّ الحافلة"، وحركة "أخذٍ" عند الناطقين بالفرنسية "prendre le bus"، وبالإنجليزية "to take the bus"، فإنه من وجوه الاختلاف الثقافي الراجع إلى اختلاف نظرة كل جماعة لغوية إلى تجربة مثل "ركوب الحافلة"؛ فجماعة ترى في هذه العملية ركوبا أوامتطاءً أو استقلالا، وترى فيها أخرى "أَخْذاً". ونحسب أن مقولات النحو الأكثر تجريدا يفترض أن

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

تكون من المشترك العام بين أنحاء الألسنة الطبيعية باعتبارها من الموروث الجيني عند الإنسان، كما يرى البعض، أو ممّا جرّده الذهن البشري من تحققات الملكة الطبيعية المخصوص بها الإنسان، كما يرى البعض الآخر. فالحدث والحادث عند محمد صلاح الدين الشريف ٢٠٠٢، والاسمية عند عاشور ٢٠٠٤ وكليبر ١٩٩٤ Kleiber G ، والوصفية عند بن حمودة ٢٠٠٣، إنما تجري على هذا النحو؛ فهي مقولات دلالية تتحقق بصور تختلف من نحو إلى آخر بحسب ما وجّهها في تاريخ إنشاء كل نحو وتطور تفكير نحاته من مؤثرات؛ بل إن الواحدة منها قد تختلف صورها اللفظية في نحو اللسان الواحد بحسب خصائص كل لسان، كتحقق الإسناد في نظام العربية بصورتيه الأساسيتين الاسمية والفعلية.

يبدو أن منزلة الدلالة قد تطورت عند تشومسكي من منوال تركيبي محض إلى منوال تركيبي دلالي في بنيته العميقة فقط، ثم في منوال تركيبي دلالي في بنيتيه السطحية والعميقة؛ ومن نظرية يتحكم فيها التركيب بصفة مركزية إلى نظرية تقوى فيها السمات المعجمية التي في الفعل لتنازع التركيب في التحكم. لكن التزام تشومسكي بمبدإ استقلالية الدراسة اللغوية حال بينه وبين تنزيل الدلالة المنزلة القوية التي تستحقها باعتبار أن المعاني المعبر عنها بالألفاظ إنما هي ضروب من التشكيل لتصورات تحدث في الأذهان أولا، وهو أمر يحتاج إلى ما لم يسمح تشومسكي باعتماده؛ وهو أن تنفتح الدراسة اللسانية على علوم أخرى لتستمد منها بعض أدوات العمل. برغم ذلك نعتقد أن تشومسكي قد مهّد الطريق لهذا التمشي بما ذهب إليه من أن اللغة ملكة قابلة للدراسة العلمية باعتبارها عضوا ذهنيا؛ فما في هذا الرأي يعدّ بداية انفتاح على علم النفس خاصة.

اتساع فضاء الاشتغال على الدلالة عند العرفانيين(الإدراكيين)

أهم مقومات الدلالة في تفسير الظواهر اللسانية

نذهب إلى أنّ المذاهب اللّسانيّة السّابقة للتوجّه العرفاني قد تعذّر عليها فهم بعض الظواهر اللّغويّة وتفسيرها، وأنّ ذلك كان أحد الأسباب الرئيسيّة في تغيّر منزلة الدّلالة في الفكر اللّساني. فالمسألة لا تختزل في مجرّد ظهور تيار لساني جديد، التيّار العرفاني، يبحث عن مكانة في تاريخ الدراسات اللّغويّة، بقدر ما هي مسعى

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

حقيقيّ لفهم الظاهرة اللّغويّة والكشف عن أسرارها وفكّ ما أبهم على السابقين منها. وبحكم أنّ المكوّن الدلالي كان ذا حضور باهت في المقاربات اللّسانيّة السابقة للعرفانيّة، تغيّرت المقاربة وحظيت الدلالة بحضور لافت في الفكر اللّساني العرفاني المقصود منه تحسين كفاءة النظرية اللغوية في فهم اشتغال اللغة؛ ومن هذا المنطلق اتّسع فضاء الدلالة عند العرفانيين.

نعتبر أنّ المؤشر الأساسي الّذي دفع في اتّجاه تغيّر موقع الدلالة في علم اللّغة هو مناهضة مركزيّة التركيب/ الإعراب في عمليّة الإنتاج والتقبّل اللّغويّة. فمع التوجّه العرفاني أصبحت الدلالة بما هي عمليّة ذهنيّة أساس عمليّة الإنتاج والتقبّل في استعمال اللغة. يقول محمد صلاح الدين الشريف: «فإنّ الشرخ الّذي أحدثه التوليديّون الدلاليّون بانفصالهم عن النّظريّة المعياريّة ازداد اتّساعا بظهور نظريّات عرفانيّة أخرى لا تقوم على مفهوم مركزيّة التركيب الإعرابي في الرّبط بين اللّفظ والمعنى، بل تقوم على اعتبار الدّلالة، أو التصوّرات والعمليّات الذّهنيّة، أساس الأبنية اللّفظيّة سواء أكانت صوتيّة أو صرفيّة معجميّة أم كانت إعرابيّة أو تداوليّة»[١٧]. يظهر التطوّر الحاصل في مفهوم الدلالة عند العرفانيّين في جملة من العناصر الجديدة التي تتألّف منها الدلالة. وأبرز مقوّمات هذه العناصر هو مفهوم الصورة الذهنيّة التي هي أسّ الأبنية اللّفظيّة اللّغويّة بمختلف مستوياتها. وقد تأسّس مفهوم التصوّرات و العمليّات الذهنيّة عند العرفانيّين بسبب تغيّر موقع اهتمام دارس اللّغة من دراسة القواعد والقوانين النحويّة من اعتبار النحو أسّ علم اللّغة إلى البحث في قوانين اشتغال العمليّات الذهنيّة، وباعتبار ما فيها من اشتراك بين مختلف مجالات العرفان الإنساني. «ذلك أنّه ما دامت هذه العمليّات الذهنيّة عمليّات منتظمة لا تخصّ اللّغة وحدها فإنّ صيغ القواعد لم تعد لها أهميّة تذكر، ولذلك وقعت إزاحتها وحلّ محلّها التمييز بين مجموعة من العناصر والتمثّلات من ناحية، والآليات الذهنيّة العرفانيّة (الإدراكية) التي يستخدمها كلّ من المتكلّم والسّامع في معالجة تلك التمثّلات من ناحية ثانية»[١٨]. من هذا الموقع يبدو المكوّن الدلالي مكوّنا تكوينيّا لا يُبنى فقط من تفاعل مختلف الأبنية اللّغويّة فيما بينها، بل أيضا من معطيات قد تستمدّ من خارج اللّغة، أي من مجالات العرفان الإنساني المختلفة الّتي تسهم كلّها في بناء تصوّر الدلالة عند العرفانيّن.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

إنّ المعنى، بوصفه الجانب المتحقّق من الدلالة، تجاوز عند العرفانيّين المعنى المعجمي والمعنى المتقوم بالسمات الدلالية المجرّدة باستقراء الاستعمال، ليصبح عملية فكرية تتشكل بمقتضاها صورة من الصور الذهنية. وتسهم في إنشاء هذه الصورة جوانب مختلفة من الوجود الإنساني منها الثّقافي ومنها التاريخي ومنها العلمي ... فإن لم يكن للإنسان هذا البعد التصوّري المختزل ذهنيّاً والقادر على إعادة إنتاج الواقع الخارجي إنشاء وتقبّلا؛ لم يتمكّن من التمييز بين أشياء الكون فكريا والتعبير عنها لغويّا. «ولن يتعلّم المرء مثلا التمييز بين الألوان إذا كان ذهنه لا يوفّر بعدا مفهوميّا يتمثّل بموجبه ذهنيّا التمييز بين الألوان. فوجود مثل هذه الحقول المفهوميّة، وليست الفروق الدقيقة بينها، هو الّذي ينبغي أن يكون محدّدا فطريّا بواسطة قواعد سلامة البنية التصوّريّة»[١٩]. وهذا يعني أنّ دلالة عبارة ما يتمّ ضبطها بوجهين اثنين من زاوية عرفانيّة: الوجه الأوّل هو المضمون الذهني المتصوّر، وهو مشترك بين البشر. والوجه الثاني هو قدرة ذاتية خاصّة بكلّ فرد على حدة، وتعبّر عن طريقته في اختيار ما يراه صالحا للتعبير عن ذلك المضمون الذهني. «أي أنّ معنى العبارة يشمل في الآن ذاته كلّ المعارف والمعلومات التي يستدعيها مضمونها، وكذلك الصّياغة الخاصّة الّتي يفرضها المتكلّم على ذلك المضمون. وهنا يتجلّى البعد الهامّ الّذي تكتسبه عمليّة الصّياغة والتنظيم، والّذي يتمثّل في القدرات الّتي بحوزة الإنسان والّتي يمكنه بفضلها إبراز جانب واحد من جوانب القاعدة الدّلاليّة أو وجه واحد يمثّل قيمة العبارة ومعناها»[٢٠]. إنّ مفهوم الصورةfigure كما تحدث في تخييل المتكلم أو الوجه profile هو من أهمّ الآليات المتحكّمة في مستوى التنظيم اللّغوي. فقد تشترك جملة من المعجّمات في نفس القاعدة الدلاليّة base/ basis. لكنّ كلّا منها له صورة خاصّة به هي وجه من وجوه تلك القاعدة. فمجموع العبارات التالية: خنصر، بنصر، سبّابة، إبهام- على سبيل المثال- تدلّ كلّها على قاعدة معنويّة واحدة هي "اليد"؛ لكنّ كلّ لفظ منها هو وجه معجمي دلالي خاص ومتميّز عن غيره من بقيّة وجوه القاعدة الدلاليّة "اليد". وبالتصوّر نفسه تتمايز المكوّنات التركيبيّة في بنية الجملة. "ويسمح كذلك مفهوم الوجه بالتمييز بين مكوّنات المركّبات النحويّة من حيث منزلة كلّ منها في العلاقة المؤسّسة للتركيب. فمن بين الذوات المشاركة في علاقة ما هناك طرفان بارزان أكثر من غيرهما. الأوّل هو الوحدة الأكثر بروزا، وهو وجه العلاقة la figure

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

de la relation، وكثيرا ما يقوم الفاعل بهذا الدور في الجملة الفعليّة والمبتدأ في الجملة الاسميّة"[٢١]؛ والثاني هو الأقل بروزا في البنية التركيبية الدلالية كالنعت بالنسبة إلى المنعوت والمضاف إليه بالنسبة إلى المضاف ... لكن ينبغي التنبيه إلى أنه ليس كل مضاف في تركيب الإضافة هو الأكثر بروزا في المطلق. فتركيب الإضافة في مثل قولنا: **جاء كلّ الطلاب** .

العنصر البارز فيه هو المضاف إليه لأن المضاف هنا – باعتباره مسوّرا – يتنزّل منزلة الصفة المؤكدة لتمام الجمع. وهكذا فإنّ مفهوم البروز saillance ليس أمرا موكولا للتركيب فقط، وإنما تتحكم في تحديده البنية التركيبية الدلالية المستعملة للتعبير عن مقصد المتكلم. فالأبنية التركيبيّة مرتبطة بقدرة المتكلّم على اختيار شكل عباري يضمن تحقّق المضامين الدلاليّة المقصودة. لذلك تبدو الدلالة العرفانيّة (الإدراكية) قدرة ذهنيّة أو عمليّات تصوّريّة ذهنيّة كامنة في الأذهان تتحقّق في الأنظمة اللّغويّة. ولكنّ المتحكّم في ضبط معالمها ليس بالضّرورة لغويّا فحسب، وإنّما هو مزيج من المعارف الإنسانيّة التي يستقي منها المتكلّم المعنى الدلالي لعبارة ما. وتخضع عمليّة التقبّل أيضا إلى هذه التمثّلات الذهنيّة التي تترجم تمثّل الفرد المتلقي للمقصد المتضمن في العبارة الموجهة إليه ليتفاعل معها: "لفهم الأفكار المعبّر عنها في الجملة، نحن في حاجة لمعرفة الرسم التمثيلي للبناء. وهذا يستلزم على سبيل المثال أنّ المترجم لا يترجم الجملة كما تظهر شكليّا، لكن باعتماد محتواها التصوّري بكلّ تأكيد"[٢٢]. فالصورة الدلاليّة الموجودة في الأذهان اختزال لتفاعلات متعدّدة الأبعاد مرجعيتها مجالات معرفيّة مختلفة؛ وهي متولدة أيضا من مختلف المستويات اللّغويّة، لذلك هي صورة تكوينيّة بالأساس: «إنّ مختلف العناصر المكوّنة للملفوظ (الوحدات النحويّة والمعجميّة والأبنية التركيبيّة) تشارك بإسهاماتها في المعنى الشامل المتحصّل عليه، بدمج التمثيلات الخطاطيّة الملابسة لكلّ منها؛ هذا التوحيد يمكن أن يكون وفيّا تماما ومساهمة كلّ عنصر يمكن التعرّف عليها بسهولة في صلب التمثيل الإجمالي» [٢٣].

من خلال مفهوم التمثيل أو الصورة الذي اعتمده العرفانيّون كمقوّم أساسي لعلم الدلالة، نتبيّن أهميّة الإضافة التي طوّر بها هذا الاتجاه الدراسات اللّغويّة الحديثة. يظهر ذلك في تمييز العرفانيّين بين مفهوم الدلالة من ناحية والمعنى من

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ناحية ثانية. فهذا الأخير إنما هو الجزء المتحقّق الذي يمثل أحد الامتدادات الممكنة للدلالة أيّا كانت مستوياته المنجزة. و تتّخذ الدلالة معاني عبارية ذات أشكال تركيبيّة أو معجميّة ... ذات صلات بمعارف متعددة الأبعاد: نفسيّة أو اجتماعية ثقافية أو تاريخيّة، وهذه كلّها جوانب تسهم في إنشاء المعنى اللّساني وحسن تقبّله.

بذلك يمكن أن نقول إن الدلالة قد تخلّصت عند العرفانية (الإدراكية) من التصور الضيق الاختزالي الذي يحصرها في ما هو لغوي محض لتصبح مجالا ينتشر في الفضائين المجرد والمتحقق من اللغة، غير مقتصرة على مضامين الوحدات اللغوية في نظاميتها وإنما موسَّعة إلى المجالات غير اللغوية التي تتفاعل معها إنتاجا وتقبلا.

التركيب صنف من الوحدات الرمزية الرابطة بين قطبي الدلالة والصوت

يصعب تحديد مفهوم التركيب عند العرفانيّين لأنّنا لا نكاد نجد تعريفا واضحا لهذا المفهوم بالماهية. لكن يمكننا أن ننزّل المسألة في إطارها العام ونتتبّع دقائقها المفهوميّة إذا حاولنا فهم تصوّر العرفانيين للتركيب في إطار تصوّرهم للنّحو عامّة، ومن خلال أمثلة مما تناولوه من المسائل التي لها صلة بالتركيب، وإن كان يصعب أن تعدّ من قبيل المتمحّض للتركيب. يرجع ذلك إلى أنّ العرفانيين أقاموا تصورهم للنحو على مخالفة ما قدّمه تشومسكي في تصوّره التوليدي المرتبط خاصّة في مراحله الأولى بالتصوّر الفيزيائي الرياضي الّذي وصفه محمد صلاح الدين الشريف بالقريب من»مفهوم الذكاء الاصطناعي»[٢٤]. وعلى خلاف ذلك ارتبطت دلالة النحو في الاتّجاه العرفاني بما سمّي بالعمليّات الذهنيّة التصوّريّة. "كلّ الأصناف اللّسانيّة المكونة (بما في ذلك النحويّة) إنما هي عمليّات معالجة للتمثيلات"[٢٥]. ويبدو لنا أنّ تصوّر العرفانيين للنحو مرتبط هو الآخر بتصوّرهم لعلم اللّغة عامّة. فقد ارتبط هذا العلم عندهم بنظم عرفانيّة عامّة: "الأنحاء العرفانيّة تمدّنا بأسس جديدة لإنشاء منوال لمعالجة اللّغة يرتكز على آليات ديناميكيّة لأشكال التمثيلات. وهذه يمكن لها، ولو في جزء منها، أن ترتبط بآليات عرفانيّة أوسع منها"[٢٦]. نرجح بناء على ذلك أنه لم ينظر إلى التركيب عند العرفانيّين بمعزل عن الدلالة من ناحية والمعنى من ناحية أخرى. ذلك أن مهمة اللسانيات عند العرفانيين تتمثل في شكلنة (شكلية) التصورات الذهنية

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

المولدة لمختلف الصور اللفظية المعبرة عن تجارب المتكلم في إدراكه للكون، وما التركيب في نهاية الأمر إلا إمكان من إمكانات التعبير التي توفرها اللغة للإنسان في هذا المجال. فالنشاط اللغوي من وجهة نظر عرفانية «يُنظر إليه على أنه نشاط خلاّق وديناميكي، بمقتضاه تُبنى التصوّرات؛ وتكون قيمة الوحدات اللسانية فيه موضع إعادة بناء وتعديل دائمين»[٢٧]. لذلك ناهض العرفانيّون مركزيّة التركيب واعتباره متحكما في المعنى. فكأنّ موضوع الدراسة في اللسانيات العرفانية (الإدراكية)لم يعد النظر في الأشكال اللغوية، وما يميز بعضها عن بعض؛ فتلك أشكال متغيرة من متكلم منتج متلقّ إلى آخر، وحتى عند المنتج المتلقي الواحد. وإنما توجه العرفانيون إلى معالجة الأشكال الدلالية القابلة للتجريد في أصناف من التصورات الذهنية التي قد تحقق البعد الكلي في الدراسة اللغوية، باعتبار الذهن عضوا يشترك البشر في التمتع بخصائصه. فإذا كان التركيب نظرا في العلاقات بين الكلم في الكلام أصبح النظر فيه ثانويا، محدودا بالقدر الذي يمكن للبنية التركيبية أن تكون قرينة على جانب من جوانب الصورة الذهنية، أو أداة لمراقبة فرضية من الفرضيات المتصلة بالتصورات.

تمكّن القيمة المركزية للدلالة عند العرفانيين من «النّظر للنّحو لا باعتباره مجموعة من الآليات التي تسمح بإنتاج تراكيب سليمة des structures grammaticales ، وإنّما على أنّه قائمة من الأبنية الاصطلاحيّة التي تسمح بتصنيف المعاني والدّلالات، وبذلك سيصبح النّحو مجرّد دراسة للعلاقات التي تربط بين متتاليات صوتيّة ودلالات"[٢٨]. وهكذا يفقد التركيب منزلة المكوّن التوليديّ المركزيّ في الجهاز الواصف للّغة، بحكم أنّ اللّغة «عند العرفانيّين، وعند رونالد لانقاكير ((R. Langacker بصفة خاصّة، مسترسل ((continuum من الأبنية الرّمزيّة. وكلّ الوحدات اللّغويّة، ما كان منها معجميّا أو صرفيّا أو تركيبيّا، وحدات رمزيّة تربط بين قطب دلالي وقطب فونولوجي، ولا يمكن الفصل بين مختلف مستوياتها"[٢٩]. وبهذا التوجّه أصبحت التركيبية عبارة عن الاشتغال بظواهر لا تنفصل عن بقيّة الظواهر اللّغويّة الأخرى لأنّها تسهم مجتمعة في بناء المعنى وتشكّله. ويحضرنا للتعبير عن هذا الدور مفهوم الاسترسال في تفاعل المقولات اللّغويّة فيما بينها، وذلك على نحو ما نراه في استرسال الألوان وتفاعلها في رسم «قوس قزح». فنتبيّن معنى الاسترسال في التركيب من خلال علاقة

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

مقولة الاسم بمقولة الفعل. يُمثَّل لذلك بـمنوال «لعبة الكريات الخشبيّة» الّذي اعتمده لانقاكير. تأسّس هذا المنوال على افتراض أن الإنسان يقسّم المدركات في الكون قسمين اثنين: الأشياء والذوات. وتتميّز هذه المكوّنات بالحركة داخل الفضاء والتفاعل فيما بينها بالتأثير والتّأثّر. وتترجم عمليّة التفاعل بالتأثير والتأثّر بين الأشياء والذوات عن شحن الأشياء والذوات التي لها طاقة ذاتية للأشياء والذوات التي هي ساكنة ولا طاقة لها. ومن خلال هذه العمليّة يصبح الساكن متحرّكا ويسهم في إحداث تفاعلات جديدة. «فالذوات الماديّة المتفاصلة تمثّل نموذج مقولة الاسم، والتفاعل بينها يمثّل نموذج مقولة الفعل. ووجود هاتين المقولتين في أغلب لغات العالم والمنزلة الّتي تحتلاّنها في البنية النّحويّة يتناسبان مع اعتبار منوال لعبة الكريات الخشبيّة نموذجا مثاليّا يقوم عليه الفكر الإنساني»[٣٠]. من هنا يبدو دور الوحدات اللّغويّة في البنية التركيبيّة خاضعا لطاقة الشحن التي تتّسم بها بعض الوحدات في البنية. وهي التي تحدث شبكة من العلاقات المحكومة بفعلي التأثير والتأثّر: «في هذه الشبكات الأحداثية يجد المشاركون في الأحداث أنفسهم مضطلعين بدور دلاليّ خاصّ. ويتحدد هذا الدور بدفق الطاقة الذي ينتقل مـن مشارك إلى آخر»[٣١].

تنازع الدلالة والتركيب الأسبقية في النظرية اللسانية وعلاقة ذلك بالإنتاج والتأويل.

يبدو أنّ الاختلاف في تحديد ماهيّة اللّغة هو أصل التنازع بين الدلالة والتركيب في الأسبقيّة في النّظريّة اللّسانيّة. فكلّ من اعتبر اللغة نظاما شكليّا خالصا اعتنى بصفة خاصة بتفسير كيفيّة انتظام الوحدات اللّغويّة في التركيب، و الرجوع بطبيعة العلاقات الرابطة بينها إلى أصل تركيبيّ مجرّد من كلّ ملابسات الإنتاج والتقبل، لأنّ تلك الملابسات تمثل الجانب المستعصي على الحصر في الدراسة العلميّة الدقيقة. وقد بيّنا حدود النتائج المتوصّل إليها في دراسة الظواهر اللّغويّة لأصحاب هذا التوجّه؛ وذكرنا من بينهم تشومسكي على وجه الخصوص. وكان ذلك من الأسباب المفسرة لظهور اتجاهات لسانيّة جديدة منها الدلالة التوليديّة. ولعلّ أبرز هذه الاتجاهات من جهة القطيعة مع الموروث اللّساني في تفسير نظام اشتغال اللّغة هو التفكير العرفاني

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

بمختلف فروعه. ويمكن أن نعتبر أن من يمكن إرجاعه إلى العرفانية (الإدراكية) من اللسانيين[٣٢] قد تقرر عنده تصوّرٌ للّغة يختلف عمّا استقر في اللسانيّات البنيوية خاصة. فقد أخرج العرفانيون الدراسة اللغوية من مجال العلامة اللّغويّة دراسة شكليّة مجرّدة إلى دراسة العمليّات الذهنيّة السابقة للإنجاز بما هي تمثيلات ذهنيّة خالصة مجالها فكر الإنسان، تتحكم في الأبنية اللّغويّة المنجزة على درجات متعددة من التحقق وصولا إلى التحقق الصوتي. وهذا الاختلاف في تصوّر حقيقة اللغة هو الذي يفسر في اعتقادنا تنازع التركيب والدلالة تفسير اشتغال الظّواهر اللّغويّة، وتـأثير ذلك في عمليّة الإنتاج والتّقبّل اللّغويّة.

يذهب تشومسكي في تفسير عمليّة الإنتاج والتقبّل اللّغوي مذهبا إبستيمولوجيّا يفصل بمقتضاه بين المستويات اللّغويّة فصلا منهجيّا ويتميّز المستوى التركيبي فيه بأهميّة خاصة بوصفه المولّد للأبنية اللّغويّة. فقدرة الفرد على الإنتاج والفهم رهينة قدرته اللّسانيّة؛ وهي في نظر تشومسكي تختزل في مفهوم النحو التوليدي: "القدرة اللّسانيّة تتميّز، عند تشومسكي، بوصفها "نحوا توليديّا" أي نظاما من القواعد التوليفية التي تسمح بتوليد مجموعة غير محدّدة من الجمل الممكنة انطلاقا من عدد محدود من الألفاظ"[٣٣]. فالنحو في تصور تشومسكي ذو منحى شكلي صرف يقوم على مجموعة من العمليّات الحسابيّة التي يولّدها المكوّن التركيبي انطلاقا ممّا سمّي بالقدرة اللّسانيّة. ومن أهمّ مقوّمات هذه القدرة اعتبار السّياق الخاص بكلّ ملفوظ. ذلك أن لاستعمالات الكلمة أو العبارة أو الجملة معاني تختلف باختلاف سياقاتها"[٣٤]. ومن هذا المنطلق يترك للسياق دور تحديد المعاني التركيبيّة التي يعبر عنها الاستعمال، كما لو كانت مما لا يحكمه شيء غير الاستعمال نفسه: «وفقا لفرضية الاستقلال السياقي، لا حاجة إلى تعقيد الوصف الدلالي بما أنّ السّياق هو الذي يحدّد قيمة الوحدات اللّسانيّة» [٣٥]. و المعنى السياقي بما سبق وصفه مكوّن ضعيف الصلة بمستوى النظام اللّغوي، باعتباره مجال تحقّق لا يرتبط ارتباطا مباشرا بالأبنية التركيبيّة. أمّا الأبنية التركيبية فهي غير واضحة الصلة بالتصورات الذهنيّة عند تشومسكي. ذلك أن هذه الأخيرة لا تدركها الدراسة اللسانية بسبب ما في طبيعة الجانب الذهني من إيغال في التجريد يمتنع عن أداة الدراسة. ويمكن أن نسوق مثالا توضيحيا يعتمد السمات الدلالية:

١ . +حيّ + طائر+ مؤنّث. ٢ . +حيّ + طائر. ٣ . +حيّ + مؤنّث.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يصدق المفهوم الأول على الطيور من جنس الإناث. أمّا الثاني فيصدق على مختلف أنواع الطيور إناثا وذكورا. ويصدق الثالث على كلّ الأحياء من الإناث. ويمكن أن نجرد أكثر في السمات الواصفة فيتسع مجال الماصدق بازدياد عدد من يشملهم المفهوم. بهذا يكون المتصوّر الذي يتقوم بالسمات المجرّدة متحكما في المتحققات التي يصدق عليها من حيث عددها. وعدد المتحققات يزيد بحسب ما ينقص عدد السمات التي يتضمنها المتصور. لكن المتحققات تظل أنواعا لا أعيانا. فإذا كانت الحمامة الأنثى من ماصدق المفاهيم الثلاثة المذكورة أعلاه، فإن المقصود بذلك كل حمامة أنثى بصرف النظر عن وجود حمامة بعينها في مكان وزمان محددين. فالمتصور المجرد القائم على السمات إذن يتحكم في النوع espèce/ type لا في أعيان النوع. وعلى هذا النحو لا يتحكم المتصور، المجرّد بالسمات، في وجوه الاستعمال في اللغة وجها وجها سواء تعلّق الأمر بالمعجم أوبالتركيب.

خالفت العرفانية (الإدراكية) السابقين لها – ومن بينهم تشومسكي – في إنشائها مفهوما لـ"التصورات الذهنية" لا يقوم على السمات الدلالية، وإنما على العمليات الذهنية المنشئة لما يقوم به الفكر من أنشطة تحقيقية تفضي إلى ظهور الدلالة بالمعنى. ومن هنا حاول العرفانيون أن يتخلّصوا من قيود المجرد من نظام اللغة، لينطلقوا من المفترض قيامه دلاليا في الذهن. وبذلك أصبحت العمليات الذهنية باعتبارها عمليات دلالية بالأساس مقدّمة عندهم على الأبنية التركيبية في إنشاء الكلام وتقبله. فلم تعد الأبنية التركيبيّة هي المتحكّمة في الإنجاز اللّغوي. والمعنى لم يعد يستقى من المعنى المعجمي للعبارة ونظام العلاقات الرابطة بينها وبين غيرها في الأبنية التركيبيّة، وإنّما أُوكل أمر كل هذا إلى العمليّات الذهنيّة التي يراها العرفانيّون سابقة للأبنية التركيبيّة. فتخلّى العرفانيّون "عن الفكرة التي مفادها أنّ المعنى يتمثّل في العلاقات الكائنة بين العبارات اللّغويّة والعالم الخارجي، وستحظى بالاهتمام الطريقة التي يلجأ إليها المتكلّم والمخاطب لتشكيل المعنى أو إعادة تشكيله"[٣٦]. وبهذا تخلّص العرفانيّيون من الفصل بين اللّغة والقدرات العرفانيّة (الإدراكية) الأخرى، وناهضوا استقلال التركيب عن بقيّة المستويات اللّغويّة ووضعوا حدّا لفكرة مركزيّته في الدراسة اللّغويّة. وأصبح التشكّل الدلالي المتجسّد في العمليّات الذهنيّة عندهم هو النّاظم للأبنية التركيبيّة: «فكلّ بنية لغويّة تعكس تنظيما ذهنيّا معيّنا للمضمون»[٣٧].

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

بهذا نفسّر اختلاف الأفراد في التعبير عن الحدث الواحد أو حتّى اختلاف ضروب العبارة التي يصوغها المتكلّم الواحد تعبيرا عن معاني متقاربة يحكمها مضمون دلالي واحد. وفي هذا يكمن جانب من جدّة المقاربة العرفانية (الإدراكية)؛ فهي مقاربة تحاول الظفر بما يؤسس لتفسير وجوه الاستعمال العيني المتحقق باعتماد ما هو أكثر تجريدا من التركيب، وهو التصور الذهني. ولعلنا نزيد الأمر توضيحا بأمثلة تعبّر عن وجوه لتصوير حدث السفر:

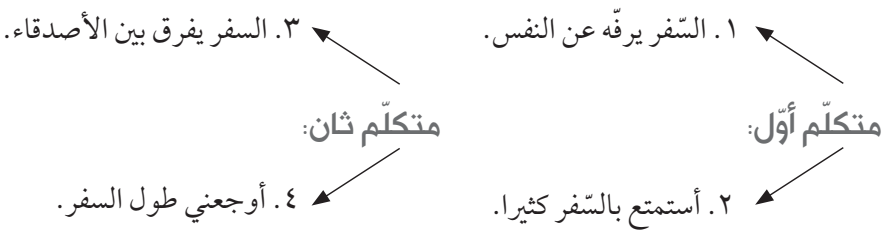

تظهر من الأمثلة المستعملة للتعبير عن صورة السفر في ذهن المتكلمَين اختلافات بين المتكلمين الأول والثاني وعند كل منهما. ونفسّر ذلك من جهة اللسانيّات العرفانيّة (الإدراكية) بأنّ الخلاف القائم بين المتكلّمين هو خلاف يفهم في ضوء قراءة دالّة على نفسيّة كلّ منهما في وصف السّفر. فالمتكلّم الأوّل شخص محبّ للسّفر. ومن هذه الزاوية العاطفيّة النفسيّة اختار بنيته التركيبيّة الدالّة على المقصد الذي أراده لتحديد رؤيته لحدث السفر. أمّا المتكلّم الثاني فقد اختار زاوية أخرى لوصف حدث السفر، لها صلة بمزاجه النفسي الّذي يبدو مرتبطا بسفر صديق. ومن ثمّ وصف السفر من جانبه القسوة والوقع المضني. لكنّ الاختلاف يظهر بصورة أكبر عندما نقارن بين موقعي المتكلم في كل مشهد. فالمتكلم يضع نفسه في خلفية المشهدين ١ و ٣ ويحمّل العبارة المستعملة صورة تكشف عن موقفه من السفر باعتباره مصدر ترفيه في ١ وسبب فراق في ٣. ثم يتغير الموقع في المشهدين ٢ و٤ فيصبح المتكلم بارزا /saillant profiled ليعبر عمّا يحدثه السفر في نفسه من متعة في ٢ ومن وجع في٤ . ولقد اختار كلّ منهما في المرّة الأولى جملة اسميّة، وفي المرّة الثانية جملة فعليّة. وكان يمكن أن يختارا أنماطا أخرى من الجمل ووحدات أخرى بها يعجّمان أصنافا

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أخرى لا تحدّ من الأحاسيس والأحكام وتصوير ذلك في مشاهد تعبّر عن الاختيار الذي تمليه ملابسات الإنجاز الكلامي. هكذا يقوم التوجّه العرفاني في معالجة الظواهر اللغوية على افتراض وجود تصورات ذهنيّة دلاليّة تحكم المنجزات اللّغوية على مراحل، لا يتدخّل في إنشائها ما هو لغويّ فحسب، بل تستمد العناصر المعنوية من مختلف مجالات العرفان الإنساني الأخرى، ومنها كما هو واضح في الأمثلة السابقة المخزون العرفاني النفسي لكل متكلّم. فالتّجارب المختلفة بين المنشئين فيما يتعلّق بمجال السّفر ترجمت عنها الأنظمة التركيبيّة المختلفة التي شكلت المقاصد في مشاهد مختلفة. ذلك أنّ حاجة الفرد ومقصده من التعبير وما يعرفه من خبرات وتجارب وعلاقته بالمتلقي ... كل ذلك يتحكّم في ما يختاره من أبنية لغويّة تركيبيّة. والمتلقي محتاج إلى كل ذلك ليعيد تشكيل المشاهد. بهذا التصوّر يصبح التركيب عند العرفانيّين إحدى الأدوات الخادمة للدلالة والممكّنة من إظهار ما يميز مشهدا عن مشهد غيره من المعاني التي تُبرز أو تُخفى: «ما دمنا نعرّف الدلالة بأنّها دراسة للمعنى من خلال العبارات الاصطلاحيّة الّتي تواضع عليها متكلّمو لغة طبيعيّة ما، فإنّ علم التركيب لا يمكن تصوّره إلاّ باعتباره جزءا من علم الدلالة. ونحو «لانقاكير» العرفاني [...] عُني أساسا بمعاني الأبنية اللّغويّة، الّتي تختلف عن المعاني المعجميّة دون أن تكون منفصلة عنها»[٣٨].

يبدو لنا أن علاقة التركيب بالدلالة في التصور العرفاني هي علاقة سابق في النظرية بلاحق. فالدلالة بما هي تصورات ذهنية خالصة تحدّد الأبنية التركيبية المتوسل بها لبناء المشهد الحامل لمقصد المتكلم. لكن بناء المشهد تتدخل فيه – فضلا عن المعارف اللغوية – معارف أخرى تختلف وجودا وعدما ونسبة وعددا من متكلم إلى آخر وعند المتكلم الواحد في الملابسات الزمانية والمكانية والنفسية المختلفة. وهي معارف وتجارب لا يوظفها الإنسان في تعبيره عن المقاصد باللغة، وإنما يوظفها كذلك في كل الأنشطة التي ينجزها: «باعتبار أنّ البناء والتنظيم في اللّغة ليسا إلاّ تطبيقا لقدرات وعمليّات ذهنيّة أعمّ يستعملها الإنسان في مختلف الأنشطة التي يقوم بها، وما اللّغة إلاّ نشاط من تلك الأنشطة»[٣٩]. وهذا مما تتأكد به القناعة بعدم فصل اللّغة عن بقيّة مجالات العرفان الإنساني الأخرى.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

قراءة بعض مسائل من النحو العربي في ضوء مبدإ تحكم الدلالة في التركيب

رأينا أن الأشكال العبارية المحققة للدلالة الواحدة تختلف محكومة بالأدوار التي يمكن لكل عنصر من عناصر المشهد المطلوب بناؤه أن يؤديها. ورأينا كذلك أن المقولات التركيبية لا ينفصل بعضها عن البعض باعتبار أن الدلالة الذهنية تسيرها وتحتاج إلى تنوّعها حتى توجَد ألوان المعاني في اختلاف صور الألفاظ صرفا وتركيبا ومعجما. وقد بدا لنا أن في التراث النحوي مسائل عولجت – حدسا – من زاوية النظر هذه. ونحن إذ نسوق أمثلة منها لا نقصد أن النحاة العرب كانوا سباقين إلى العرفانية (الإدراكية)، وإنما نريد أن نستدل على أن مسائل التركيب/ الإعراب لا تدرس معزولة عن الدلالة والمعاني، وأن أسبقية الدلالة وتحكمها في التركيب/ الإعراب مبدأ نظري نجد على القول به أدلّة في التراث النحوي؛ وإن كانت هذه الأدلة لا ترتقي إلى درجة النظامية. نقصد بذلك أنه وجهة نظر وُظّفت في مسائل دون مسائل، لذلك نصفه بالمبدإ النظري، مع الاحتراز الذي يبرره أنه لم يكن صريحا في صياغته عند النحاة وإنما نحن الذين نستنتجه من تمشّيهم.

قسّم التراث النحّوي العربي مبحث الكلم قسمة ثلاثيّة: اسم وفعل وحرف، «فالكَلِم: اسمٌ، وفِعْلٌ، وحَرْفٌ جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل. فالاسمُ: رجلٌ، وفرسٌ، وحائط. وأمّا الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء [...] وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعلٍ فنحو: ثُمَّ، وسَوْف، وواو القسم ولام الإضافة، ونحوها»[٤٠]. ومن مزايا هذا التقسيم أنه بسيط وواضح؛ لكنه قد لا يفي بالحاجة في تفسير كل أصناف الوحدات المستعملة في الكلام. لذلك حاول النحاة أن يجدوا حلولا لا تنقض هذا التقسيم النظري أو تهدم أسسه، لكنّها تسمح بمعالجة الوحدات التي تجتمع فيها خصائص أكثر من قسم من الأقسام الثلاثة؛ مثل المشتقّات الاسميّة المتّصلة بالفعل، فهي أسماء من جهة اللّفظ وأفعال من جهة المعنى؛ أو الوحدات الاسميّة المتّصلة بالحروف من جهة اللفظ فبنيت لمشابهتها الحرف؛ أو تصرّف بعض الحروف تصرّف الأفعال. وسنفصّل القول فيها تباعا حتّى نتبيّن السبب في حمل وحدة لغويّة على أخرى، وحتّى نتبيّن توظيف النحاة للدلالة في تفسير هذا التقاطع.

تتقاطع خصائص الاسمية والفعلية – عند النحاة العرب– في مستويات مختلفة. وقد اعتبروا اجتماع السّمات الاسميّة والسمات الفعليّة في الوحدة الواحدة ضربا من

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ضروب المشابهة. فاسم الفاعل واسم المفعول والمصدر وما جرى مجراها أسماء في ألفاظها المتحققة باعتبار ما تلحقها من علامات تصريفية تركيبية، لكنها قد تعمل عمل الفعل بما فيها من قدرة على اختزال علاقة تركيبية إسنادية متضمّنة لعمل فعل في فاعل على الأقل[٤١].

١- جاء مناشدُ الرئيسِ.

٢- هذا مناشدٌ الرّئيسَ.

فاسم الفاعل في المثال الأوّل لم يعمل عمل الفعل لأنّه لم يقم مقامه لا تركيبيّا فحسب بل دلاليّا أيضا. فالمتكلم قصد أنّ المناشدة تمّت في زمن قبل زمن التكلم والدلالة الحدثية ضعيفة أو لا تكاد توجد، في حين أنّه في المثال الثاني قد عمل عمَل الفعل ونصب المفعول، باعتبار أن المتكلّم يعني أنّ المناشدة تقع في الحال أو الاستقبال؛ وهو ما يقوي جانب الحدثيّة الفعلية فيه. وهذا يفيد أنّ عمل اسم الفاعل يقوى متى قويت فيه الدلالة الحدثية فيحمل معنى الفعل؛ وإذا ما ضعف ذلك المعنى ودلّ على الماضي تمحّض إلى الاسمية فلم يعمل. ويمكن بناء على ذلك أن نفهم أنّ التصرف التركيبي لهذا الصنف من الوحدات تحكمه المقاصد الدلاليّة. وهكذا يتحكم ما يختاره المتكلّم من دلالة في تحديد الصورة التركيبية المعبّرة عن المعنى الذي يطلب أن يتواصل به مع المتلقي. ذلك أنّ «المتكلّم قادر على تصور نفس المضمون بطرق مختلفة. ولعلّ أهمّ ما يميّز هذه القدرة يتمثل في تمييز المتكلم بين الوجه /figure profile والقاعدة أو الخلفية. فقاعدة المعنى هي مجموعة الأبنية والمجالات العرفانية (الإدراكية) التي تخصصه أما الجانب الذي يقع إبرازه فهو بنية صغيرة من أبنية تلك القاعدة أو الخلفية التي تحيل عليها تلك العبارة وتشير إليها"[٤٢]. فالمناشدة قاعدة معنوية يختار منها المتكلم الوجه الذي يناسب المعنى الموافق لمقصده، وبذلك تتحدّد البنية التركيبية الموافقة للمقصد. والمتلقي يعتمد الضوابط نفسها لكنه ينطلق من البنية التركيبية ليصل إلى المعنى المقصود مميزا إياه من الإمكانات التي تسمح بها القاعدة الدلالية.

يتقاطع الحرف مع الفعل في اللّسان العربي مع ما سمّي في التراث النحوي بالحروف المشبّهة بالفعل، وهي النواسخ الحرفيّة «إنّ وأخواتها». «تشبه هذه الحروف الأفعال في تضمّن دلالتها وتأثيرها في الاسم نصبا ورفعا»[٤٣]. وهي لا تتصرّف

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

تصرّف الأفعال ولكنّها تحمل دلالة الحدث الفعلي من ذلك قولنا:

١ . إنّ الوطنَ حرٌّ.

٢ . ليت الشّباب يعود.

تشترك الحروف التي تصدّرت التركيبين مع الفعل في نقاط منها عملها الرفع والنصب في الأسماء. فقد تطلّبت، مثل الفعل، اسما منصوبا وآخر مرفوعا؛ ولكنّ المنصوب واقع مباشرة بعد الحرف ومتقدّم على المرفوع؛ في حين أنّ الفعل يتّصل به مرفوع باعتباره من تمامه، ويكون منصوبه ثانيا فضلة. برغم هذا الفرق، شبّه النحاة منصوب إنّ وما جرى مجراها بالمفعول المتقدّم على فاعله معتبرين الحرف العامل قاصرا عن التصرّف في معمولَيه تصرف الفعل فيها. وممّا برّر به النحاة الاشتراك بين الأفعال وهذه الحروف المختلفة في صورتها اللفظية عنها أنها تحمل دلالة أفعال معينة: فحرف «إنّ» دالّ على التوكيد، و«ليت» دال على التمني .... ويبدو لنا أن هذه الحجة لها ما يثبت سلامتها. فـ«إنّ» وما جرى مجراها من حروف المعاني؛ والسياق – لغويا كان أو مقاميا – هو الذي يحدد معنى كل منها. وقد ذكر النحاة أنّ الفرق بين الأمثلة التالية:

زيد مريض

إن زيدا مريض

إنّ زيدا لمريض

يتمثل في أن الأول مجرد إخبار بمرض زيد. أما الثاني فيستعمله من رأى على وجه المتقبل شيئا من علامات الشك في مضمون الخبر. ويُلتجأ إلى البنية الثالثة إذا تزايد ذلك الشك وقوي. فالأبنية التركيبية الثلاث تعبيرات عن وجوه ثلاثة من المعاني التي تحكمها قاعدة دلالية واحدة فقيرة «مرضُ زيدٍ»، باعتبارها أكثر تجريدا؛ لكنها قوية باعتبار ما تتميز به من طاقة على تسيير المنجز المتعدّد من التعبيرات. وينتج ثراء المعاني في ١ و ٢ و ٣ مقارنة بالقاعدة الدلالية ممّا يضيفه مجرّد الإخبار في ١، والتأكيد البسيط في ٢، والتأكيد القويّ في ٣. وإنما هي ثلاثة وجوه من المعاني تترجم مواقف المتكلّم من القاعدة الدلالية وهي وجوه تتكون في ذهن المتكلم بناء على تحليله القبلي لاعتقاد المتقبل في تلك القاعدة الدلالية، وبحسب نوع الاعتقاد يختار البنية التركيبية المؤدية للغرض المقصود من عملية التواصل.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يمكننا أن نعدّد الأمثلة الشاهدة على الاشتراك المقولي في أجناس مختلفة من الألفاظ التي يوهم ظاهرها المنطوق بخلاف ما تدلّ عليه. فالأسماء المبنية علل النحاة خروجها عن الأصل في الاسمية بشبهها بالحروف. وأسماء الأفعال تدل تسميتها على اشتراك المقولتين فيها؛ ومن الألفاظ ما يقع في الكلام مرة اسما ومرّة حرفا نحو «ما «؛ ومنها ما يكون مرة اسما ومرة أخرى حرفا نحو «مذ». ويبدو لنا أن هذا ومثله يحتاج إلى افتراض وجود مقولة أكثر تجريدا تشرّع للقول بالاشتراك على غرار ما اقترحه لانقاكير و شكلنه في منوال الكريات الخشبية boules de billard[٤٤]؛ وماهي إلا تمثيل للدلالة الذهنية لهذه المقولات.

نريد أن نؤكّد أن النحاة العرب كثيرا ما التجؤوا إلى اعتماد تبريرات تدلّ على أن هاجس الدلالة – باعتبارها ظاهرة متحكمة في الصور التركيبية – كان حاضرا بصفة ملحة أحيانا. لكنّ اعتمادهم مداخل لفظية في تبويب المادّة النحوية جعل هذا التوجه في التفكير مشتتا في كتبهم، فكأنه لا يجمع بينه جامع. فإذا افترضنا أنّ «التأكيد» مقولة مجرّدة قائمة في الذهن البشري يحتاج إليها الإنسان على اختلاف الألسنة البشرية، وجدنا النحاة العرب قد رصدوا أشكالا لغوية مختلفة تعبّر عن هذه المقولة في العربية نذكر منها:

– ما غلّقت الملكة الأبواب.
– ما الملكة بمغلّقة للأبواب.
– ما غلّقت الملكة نفسها الأبواب.
– ما غلّقت ما علّقت الملكة الأبواب.
– مـــــا غلّقت الملكة الأبواب. (بإطالة المدّ في حرف النفي عند النطق)
– ... .

فنظام العربية يمكّن المتكلم من أشكال تعبيرية مختلفة: الاشتقاق في ١، و زيادة الباء في ٢، ووظيفة التوكيد المعنوي فاللفظي في ٣ و ٤، والتنغيم intonation في ٥ ... ممّا يقوم شاهدا على أن الدلالة لا تتحكم في الأبنية التركيبية فحسب، وإنما تنتشر في الأبنية اللغوية المؤهلة لحمل المضمون الدلالي بما في ذلك البنية الفونولوجية مجسّدة في التنغيم، وإن كانت الوحدات الفونولوجية تصنّف ضمن الوحدات التمييزية[٤٥]. وقد تقرر عند العرفانيين أننا لا نقدر على تفسير اختيار المتكلم لبنية لغوية دون أخرى

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

إذا لم نعتمد مختلف معارف المتكلم، وعلاقته بالمتقبل، وتقييمه للعناصر المتدخلة في ملابسات الحدث... وهذا مما يقوم ذهن الإنسان بحسابه في كل عملية تواصل ليضمن وصول محتوى رسالته بأدنى درجات اللبس.

ليست مقولة التأكيد إلا مثالا بسيطا على إمكان الانطلاق في دراسة الظواهر اللغوية المتحققة مما يفترض أن يكون مسيّرا لها من الدلالات المجردة الجامعة. فالنفي والجعلية والوصفية والحدثية والاسمية والفعلية والحرفية و التسوير... تجري هذا المجرى في اعتقادنا، ويمكن أن تدرس انطلاقا من المعنى في اتجاه العبارة من أجل استكشاف معالم الدلالة المسيرة لأحكام اللفظ المتحقق. ونشير في هذا السياق إلى أن هذا التوجه في الدراسة نبّه إليه يسبرسن منذ بداية القرن العشرين[٤٦]؛ لكنّه لم يوفّق في تقديرنا آنذاك إلى ما وُفق فيه العرفانيون اليوم بسبب عدم توفّر الأدوات المعرفية التي توفّرت في الدرس اللساني في نهاية القرن العشرين.

الخاتمة

حاولنا أن نرصد بعض المناويل المجسدة لتوسع اعتماد اللسانيين على الدلالة، وتراجع دور التركيب في الجهاز الواصف المفسّر لاشتغال اللغة. وتبين لنا أن ذلك بدأ مع تشومسكي بعد منواله الأوّل؛ وتأكد في نظرية الإسقاط المعجمي. برغم ذلك ظلّ تصوّره لأهمية الدلالة مقيدا بالتزامه بمبدإ الاستقلالية في دراسة الظواهر اللغوية، وبمبدإ مركزية التركيب في جهاز اللغة. وبدا لنا أن النقلة الحقيقية في إعطاء الدلالة الأهمية الأوّليّة حدثت مع العرفانيين. ولم يكن ذلك ليتحقق لولا أمرين: الأول صعودهم في سلّم التجريد أكثر من سابقيهم، ونظرتهم إلى الدلالة نظرة تكوينية تجعلها قابلة للتمثيل في صور تنشأ في الذهن، وتوكل إليها مهمة التحكم في الأشكال اللغوية المتعددة التي تتحقق بها الدلالة الواحدة. أمّا الأمر الثاني، فهو توسيعهم الدراسات اللسانية لتعتمد- فضلا عن معارف المتكلم اللغوية- معارف أخرى يُحتاج إليها لتفسير المتعدد في المنجز بين الناطقين بلسان واحد، وعند الناطق الواحد باعتبار ملابسات الإنجاز.

لقد قويت النظرية اللسانية مع العرفانيين؛ وأصبحت لها كفاءة وصفية تفسيرية عالية بفضل تمكّنها من تجسيد الدلالة الذهنية في شكل تصورات وخطاطات

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ومشاهد وغيرها مما استحدثته من مفاهيم، من ناحية أولى، وبفضل توصّلها إلى اعتماد آليات تقوى على تفسير الكلام المنجز باعتباره ظاهرة فردية، من ناحية ثانية. وبذلك توسّع موضوع البحث في اللسانيات بعد أن كان سجين نظام مغلق للسان قوامه مجموعة من القوانين.

ولعل النتيجة التي توصّل إليها الفكر العرفاني متمثلة في اعتبار الدلالة مقدمة على التركيب في دراسة الظواهر اللغوية تحتاج بعض التوقف والتفكر. ذلك أن الفصل بين المجالين له من الدواعي المنهجية ما لا يؤكده منطق حدوث الأشياء في الطبيعة. ذلك أن اللغة ظاهرة طبيعية تخضع لما تخضع له الظواهر التي من جنسها. فقد نقبل فرضية كون الدلالة -باعتبارها صورا ذهنية- سابقة لأشكال التركيب باعتباره أدوات تحقق. لكن السؤال الذي يلحّ علينا عندئذ هو: من أين تنشأ الأبنية التركيبية؟ هل تنشأ من عدم؟ الأفضل في ظنّنا أن نفترض أنّ لها مكانا ما في التصورات الذهنية على علاقة بشكل من الأشكال بالبنية الدلالية المجردة.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

قائمة المصادر والمراجع :

العربيّة:

ابن السراج، أبو بكر محمد.(ت ٣١٦ه). الأصول في النحو. مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت. ط١، ١٩٨٥.

ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، (ت ٧٦١هـ) . مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. تحقيق. مازن المبارك / محمد علي حمد الله. دار الفكر . ط ٦ . دمشق ١٩٨٥.

بن حمّودة، رفيق. الوصفيّة: مفهومها ونظامها في النظريات اللّسانية. دار محمّد علي / كلية الآداب سوسة ٢٠٠٤.

بن غربيّة، عبد الجبّار. مدخل إلى النّحو العرفاني (نظريّة رونالد لانقاكير"Ronald Langacker"). كلّية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة. ط١. مسكيلياني للنّشر والتوزيع ٢٠١٠.

جاكندوف، راي. علم الدلالة والعرفانيّة .ترجمة عبد الرزاق بنور. دار سيناترا ٢٠١٠.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمان بن محمّد (ت ٤٧١ هـ). الجمل في النّحو، دار الكتب العلميّة. ط ١. بيروت. لبنان ١٩٩٠.

سيبويه، أبو بشر عمرو (ت ١٨٠ هـ). الكتاب، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨.

الشّريف، محمّد صلاح الدّين. الشرط والإنشاء النحوي للكون: بحث في الأسس البسيطة المولّدة للأبنية والدّلالات. منشورات كلية الآداب منّوبة ٢٠٠٢.

عاشور، المنصف. ظاهرة الاسم في التفكير النحوي العربي، بحث في مقولة الاسميّة بين التّمام والنقصان. منشورات كليّة الآداب منوبة. تونس ٢٠٠٤.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الأجنبية:

Chomsky, Noam. Le langage et la pensée. Traduit de l'anglais (Etats-Unis) par Louis-Jean Calvet et Claude Bourgeois. éd. Payot. Paris. 1970.

Delbecque, Nicole. Linguistique cognitive. comprendre comment fonctionne le langage. première édition. Duculot. 2002.

Gardner, Howard. The Mind›s New Science: A History of the Cognitive Revolution. Printed in The United States. 1981, 1985, 1987...

Jespersen, Otto. La philosophie de la grammaire. trad.de l'anglais par Anne-Marie Léonard. éditions Minuit. Paris 1971.

Kleiber, Georges. Nominales: essais de sémantique référentielle. éditions Armand Colin. Paris 1994.

Langacker, Ronald. W. Noms et verbes. Traduction de l'anglais par Claude Vandeloise, in: Communications 53. 1991.

Saussure, Ferdinand de. Cours de linguistique générale. Éd. Payot. Paris. 1972.

Stéphane, Robert. Modèles linguistiques de production. Michel Fayol. Traité des Sciences Cognitives. Volume "Production du langage ", Hermès, 2002.

Victorri, Bernard. Les grammaires cognitives, in C. Fuchs. La linguistique cognitive, éd Ophrys. 2004.

الهوامش (Endnotes)

١ – أتوجه بالشكر للأستاذ رفيق بن حمّودة / معهد اللغويات العربية بجامعة الملك سعود على قبوله مراجعة هذا البحث وإبداء بعض الملاحظات التي ساعدتنا على إنجازه.

٢ – Gardner. H. 1981. The mind's new science.

٣ – Positivism / Positivisme.

٤ – نذكر من ذلك: رسالة ماجستير. القيروان ٢٠٠٧ «وسم الإعراب في نظامي العربيّة والفرنسيّة: دراسة تقابلية»؛ ورسالة الدكتوراه «الإعراب والتركيب :دراسة أنماطيّة في الحالات الإعرابيّة وصور تحقّقها في نظام العربيّة خاصّة»، بإشراف الأستاذ رفيق بن حمّودة. القيروان

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

١٢ / ١٠ / ٢٠١٤؛ وبحث «سلطة الإعراب ودوره في تشكّل الأبنية الصرفيّة وتحقّق الصور الصوتيّة.» مجلّة موارد، لسنة ٢٠١٤. وبحث»المنظومة الاصطلاحية للإعراب وتطوّر المصطلح في التراث النحوي العربي»،كلية الآداب بسوسة، ٢٠١٣.

٥ – بينا في دراسات سابقة أن موضوع التركيب syntaxe موافق تقريبا لموضوع الإعراب في النحو العربي.

٦ – نستعمل المصطلحين في المعنى اللغوي العام، لكننا سنميز بينهما لاحقا باعتبار أن الدلالة مجردة والمعنى متحقق.

٧ – المنوال التركيبي١٩٥٧، المنوال المشترك Standard ١٩٦٥، المنوال المشترك الموسّع Théorie standard étendue. ١٩٧٠.

8 - Stéphane Robert. 2002. p. 69. “Mais il accorde, en outre, un rôle primordial au composant syntaxique dans la production. En effet, ce sont les structures syntaxiques qui engendrent les énoncés: le choix des mots se fait à l’intérieur de la syntaxe qui est considérée comme le seul composant génératif.”

٩ – التركيب وصف للعلاقات المتحكمة في/ القائمة بين الوحدات المعجمية في الكلام.

١٠ – الشريف محمد صلاح الدين.٢٠٠٢. ص١٣٨.

١١ – بن حمودة رفيق. ٢٠٠٤ . ص ١١٦

12 - Saussure. Ferdinand de. 1972. p. 371 .

١٣ – بن حمودة رفيق. ٢٠٠٤. ص ١٢٩.

١٤ – بن حمّودة رفيق.٢٠٠٤ .ص١١٧

15 - Stéphane Robert.2002. p68 “ Il a en outre défini cette compétence linguistique comme une faculté cognitive spécifique, autonome des autres capacités cognitives humaines, et le seul objet d’étude de la linguistique théorique.”

16 - Chomsky N. 1970. p135 “Le langage n’a après tout pas d’existence hors de sa représentation mentale.”

١٧ – . ضمن تقديمه لـ. بن غربيّة عبد الجبار. ٢٠١٠ . ص٩ .

١٨ – بن غربيّة عبد الجبار .٢٠١٠. ص ١٨.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

١٩ – جاكندوف راي. ترجمة بنور. ٢٠١٠ . ص٧٠.

٢٠ – بن غربيّة عبد الجبار. ٢٠١٠ . ص٤٢.

٢١ – بن غربيّة عبد الجبار. ٢٠١٠ . ص ٤٣.

22 - Delbecque Nicole. 2002. p. 104 " Pour comprendre les pensées exprimées par la phrase, nous avons besoin d'en reconnaitre le schéma de construction. Cela implique par exemple que le traducteur ne «traduit » pas la phrase telle qu'elle apparait formellement, mais bien dans son contenu conceptuel."

23 - Victorri Bernard. 2004, p.89 "les différents éléments constitutifs de l'énoncé (unités grammaticales et lexicales et constructions syntaxiques) apportent leur contribution au sens global, qui est obtenu en fusionnant les représentations schématiques associées à chacun d'eux. Cette unification peut être parfaitement fidèle, l'apport de chaque élément étant aisément reconnaissable au sein de la représentation globale".

٢٤ – الشريف، م. ص. ضمن بن غربيّة ٢٠١٠. ص٩.

25 - Stéphane Robert. 2002. p. 73: "tous les composants linguistiques (y compris grammaticaux) constituent des opérations de traitement de représentations".

26 - Stéphane Robert. 2002. p. 76-77: " Les grammaires cognitives fournissent ainsi des bases nouvelles pour l'élaboration d'un modèle de traitement du langage fondé sur des mécanismes dynamiques de construction des représentations, qui peuvent, au moins en partie, être reliés à des mécanismes cognitifs plus généraux.

27 - Stéphane Robert. 2002. p73: " l'activité de langage est conçue comme une activité, créatrice et dynamique, de construction de «conceptualisations », dans laquelle la valeur des unités linguistiques est l'objet d'une restructuration et d'un ajustement constant ".

٢٨ – بن غربيّة عبد الجبار . ٢٠١٠. ص ١٨ .

٢٩– بن غربيّة عبد الجبار . ٢٠١٠. ص ١٨ .

٣٠ – بن غربيّة عبد الجبار. ٢٠١٠ . ص٥٧ .

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

31 - Delbecque Nicole. 2002. p. 131: “Dans ces grilles événementielles, les participants se voient attribuer un rôle sémantique particulier. Celui-ci se définit par le flux d’énergie qui va d’un participant à l’autres».

٣٢ – نذكر منهم على سبيل المثال: ليونار تالمي L.Talmy وجورج لايكوف G.Lakoff وجيل فوكنييي G.Fauconnier وإيلييانور روش E. Rosch وراي جاكندوف R. Jackendoff.

33 - Stéphane, Robert.2002. p 68: “La compétence linguistique se caractérise, selon Chomsky, comme une « grammaire générative », c’est-à dire un système de règles combinatoires qui permet de générer un ensemble infini de phrases possibles à partir d’un vocabulaire fini «.

34 - Moeschler, Jacques. 2009. p 41: “Les usages d’un mot ou d’une expression ou encore d’une phrase ont des sens différents dans des contextes différents”.

35 - Moeschler, Jacques. 2009. p. 41, “Selon la thèse de la dépendance contextuelle il n›y a pas lieu de complexifier la description sémantique puisque c›est le contexte qui détermine la valeur des expressions linguistiques “.

٣٦ – بن غربيّة عبد الجبار. ٢٠١٠ . ص٣٥ .

٣٧ – بن غربيّة عبد الجبار. ٢٠١٠ . ص٣٧.

٣٨ – بن غربيّة عبد الجبار. ٢٠١٠ . ص٣٧ .

٣٩ – بن غربيّة عبد الدجبار. ٢٠١٠ . ص٣٧.

٤٠ – سيبويه. الكتاب. ج١ .ص١٢.

٤١ – ابن السرّاج. الأصول. ج١ . ص١٢٢.

٤٢ – بن غربيّة عبد الجبار. ٢٠١٠ . ص٤٧.

٤٣ – عاشور. المنصف. ٢٠٠٤ . ص٣٠٧.

44 - Langacker R. W. Noms et verbes. Traduction de Claude Vandeloise, in Communications 53. 1991.

٤٥ – نعتقد أن التنغيم يمكن أن يكون في العربية ظاهرة فونولوجية قد تحمل دلالة التأكيد عندما يمطط المتكلم إنجازه لمقطع محدد في كلمة معينة ليلفت انتباه المتلقي إلى الأهمية المعنوية للوحدة التي خرج بها عن النطق المعياري العادي. والتأكيد في حقيقته تثبيت لمعنى حاصل لا

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

إضافة لمعنى جديد مختلف.

٤٦ – يسبرسن Jespersen. Otto هو لساني وجامعي دنمركي (١٨٦٠–١٩٤٣)، ظهر كتابه The Philosophy of Grammar باللغة الإنجليزية سنة ١٩٢٤، وترجم بعد ذلك إلى الفرنسية: La philosophie de la grammaire. ١٩٧١. ص ٥٨.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً